لماذا رؤية جديدة للتاريخ الإسلامي؟(*)

سوء التفسير

ذات يوم كان حوارٌ حول الثقافة ، والتربية ، وبناء الإنسان المعاصر ، فقال محاوري فيما قال :.. إن التفسير الصحيح للمعارك والغزوات الإسلامية هو أن الخلفاء أرادوا أن يوجهو المسلمين لمصارعة الدول المجاورة كي يشغلوهم عن النزاع القبلي ، ويلهوهم عن الخلافات الداخلية ، والصراع المذهبي ، ثم كانت الجزيرة العربية آنذاك مركزَ طردٍ للسكان ، فهي بذلك مهددة بالجوع ؛ فكان لابد من غزو جيرانهم ، ونهب خيراتهم خوفاً من شبح الجوع !!!

كذا قال بنص !! ألفاظه تقريباً . وصاحبي هذا من ألمع موجِّهي وزارة التربية والتعليم .

هذا رأيه !! وهذا موقعه !! وصاحبي هذا ليس فرداً ولكنه نمط ، وللأسف هو النمط السائد الشائع بين كل متعلّمينا ومثقفينا إلا من رحم ربك. وهم في الواقع مجنيٌّ عليهم وليسوا جُناة ؛ فهم يُعطون ما أخذوا ، ويتكلمون بما قرأوا، ويعلّمون بما تعلّموا ..

(*) كتبت في صيف سنة ١٩٧٠م ، على أثر مناقشة مع صديق كريم وأستاذ جليل جمعتني به رحلة في سفر طويل ؛ وكان حديثنا طوال هذه الرحلة حول هموم أمتنا وهذا أحدها.

obeikandl.com

موقفنامن الدراسات التاريخية والمؤلفات الموجودة حالياً:

نبادر فنقول : إننا لانتهم أحداً بالقصور ولا بالتقصير ، ولا نتشكك في نيات أحد ، ولا في دينه ، ذلك أن حُجّتهم ظاهرة ، وعذرهم واضح ، فمنذ تحركت الأمة الإسلامية لليقظة الحديثة تحرك أعداؤنا من دهاة المستشرقين ، ولئام المبشرين ، وأخذوا بزمام الفكر والرأي ، واقتعدوا مقعد التوجيه والإرشاد ، وتمثّلت خطورتهم في ناحيتين :

الأولى : أنهم كانوا أساتذةً للرعيل الأول من المؤرخين المسلمين. بل ما زالوا للآن يوجهون الدراسات التاريخية حسب هواهم ، وما زالت مؤلفات هؤلاء المستشرقين من أمثال : « جب» و «جولدتسيهر» و «براون» و«لان بول» و«ماكدونالد»، وأضرابهم، مازالت للآن هذه المؤلفات هى أسخى المنابع وأشهاها للمؤلفين المسلمين، يلجئون إليها ، ويتباروْن في تحلية كتبهم وتزيينها بأسماء هذه المؤلفات مراجعَ لهم .

والناحية الثانية : التي تمثلت فيها خطورة هؤلاء المستشرقين والمبشرين ، هي توجيههم لحركة إحياء التراث وبعثه ، فقد سُلّطت الأضواء على جوانبَ معينة من تاريخنا ، أُريد لنا أن نراها ، وعلى مؤلفاتٍ معيَّنة أُريد لنا أن ندرسها ، ولك أن تحصي عددَ طبعات كتاب الأغاني للأصفهاني ، وتعدّد المحاولات التي تمت لتجريده حينا ، وتلخيصه حينا ، وتقديم مختاراتٍ منه حينا ، بل الدراسات والأبحاث التي تناولته شرحاً وتحليلاً ، وتجميعاً وتفريقاً، وناهيك بتقديمه في الأثواب الجديدة من حلقات إذاعية ونحوها.وما يقال عن (الأغاني) يقال عن(ألف ليلة وليلة) والعناية به والاهتمام بإظهار قيمته حتى قرّ في بعض الأذهان - من طول الإلحاح واللّجَاجة في التكرار -أن صورة المجتمع الإسلامي في عصر الإسلام الزاهي كانت كما تراها في كتاب الأغاني ، وكما تصوّرُها حكاياتُ ألف ليلة وليلة.

هكذا سيطر الغزاة -كماقلنا- على حركة التدريس والتوجيه في مراكز الأبحاث والدراسات العليا، وعلى حركة الإحياء والبعث لتراثنا ، ومن هنا

obeikandi.com

كان عذر هؤلاء المؤرخين المحْدَثين من المسلمين، بل إننا نؤكد أن لبعضهم -برغم وعورة الطريق- محاولاتٍ جيدةً كان لها آثارٌ تستحق الشكر والتسجيل .

معنى التاريخ :

ولعل من المناسب الآن أن نبين معنى التاريخ ، ليظهر لنا سرُّ الاهتمام بهذا الموضوع.

التاريخ في الحقيقة ليس مجرد سردٍ للأحداث ، مهما بُذلت الجهود لتحقيق تاريخ الأحداث وتوثيقها ، فذلك على ضرورته ليس هو علم التاريخ ، بل علم التاريخ هو تفسير الأحداث في عمقٍ ووعي ، حتى ندرك سر هذه الأحداث ، والروابط التي تربط بينها، فنتعرف على القانون التاريخي الذي يتحكم في سير الأحداث ، ويوجه دورات التاريخ.

قيمة التاريخ :

والتاريخ بهذا المعني ليس علم الماضي ، بل هو علم الحاضر والمستقبل ، فهو الذي يعطي الأمة الواعية الضوء لتستبين طريقها، والأمم دائما تُهرع إلى تاريخها في لحظات محنتها ، حتى تستمدَّ منه الإلهامَ، والقوةَ النفسية، ومن هنا كان حرص عدونا على تزييف تاريخنا وتشويهه ، لتضليل الحاضر وإفساد الطريق إلى المستقبل ، وإجهاض موجة اليقظة المتزايدة ضد العدو التاريخي والقومي والحضاري.

ما يتميز به التاريخ الإسلامي :

والتاريخ الإسلامي فوق ذلك يتميز بأنه تاريخ عقيدة وشريعة ، بأنه في حقيقته صورة الإسلام التطبيقية ، فالتاريخ الإسلامي هو الإسلام مطبقاً منفَّذاً واقعاً ، فإذا كان الإسلام موجوداً في القرآن الكريم والسنة النبوية الصحيحة ، فذلك كتشريع وهداية ، ولكنه كواقع عملي موجودٌ في عمل الرسول -صلى الله عليه وسلم- والخلفاء من بعده ، ودول الإسلام التي

حملت رايتَه وانساحت به في الأرض ، وهذا يقتضينا أمرين :

أولهما - بذل مزيد من الاهتمام والجهد في البحث والدراسة ، والتمحيص والنقد، بحيث يتلاءم الجهد المبذول مع شرف الموضوع وعلو قدره ، فليست روايات التاريخ حينئذ ، بأقلَّ قدراً من روايات السنة في وجوب العناية بها وتمحيصها.

وثانيهما - أن نوقن بأن باحث التاريخ الإسلامي لا يمكن أن يدرك الأحداث التاريخية، وتتفتحَ أحاسيسه لحقائقها وأسرارها إلا بقدر إدراكه لطبيعة العقيدة الإسلامية ، وطريقة استجابة المسلمين لها. يقول الشهيد سيد قطب: « إن المعارك الحربية والمعاهدات السياسية والاحتكاكات الدولية، وما إليها ، مما يُعنى به التاريخُ غالباً أكثر من سواه -إنها كلّها محكومة بعوامل أخرى ، هى التي يجب أن تبرز عند كتابة التاريخ- هذه العوامل هى التي يختلف الباحثون في تقديرها وإدراكها ، كلٌّ يخضع للفلسفة التي تُسيطر على تفكيره وتقديره ، أي لطريقة إدراكه للحياة في عمومها.

وللباحث المسلم مَزيةٌ هنا في دراسة الحياة الإسلامية ، لأن طريقةَ إدراكه للحياة تمتُّ بصلة إلى حقيقة هذه العوامل المؤثرة في سير التاريخ . ومن ثم، فهو أقدر على التلبس بها واستبطانها ، والاستجابة لها استجابة كاملة صحيحة.

فعلى هذا ، لن يستطيع باحثٌ غيرُ مسلم ، بل غيرُ مسلمٍ صادق الإيمان - لن يستطيع أن يدرك حقائق التاريخ الإسلامي وأسرارها ، لن يستطِيع ذلك بالطبيعة ، لأنه معطل الحواس مشلول الإدراك . وأوضح مثال علي ذلك ما قاله المستشرق (مونتجمري واط) حين قال : إن محمداً صلى الله عليه وسلم، لم يكن يعتكف في غار حراء تعبداً ، وتأملاً ، وإنما كان يذهب إلى هذا الغار في رأس الجبل ليصطاف فيه ، حيث كان فقيراً لا يستطيع أن يذهب إلي الطائف مثلما يذهب أغنياء مكة.

حينما يقول هذا المستشرق ذلك ، فإنما يقول من موقع كُفره بالإسلام

ورسول الإسلام ، ومن هنا لم يستطع أن يستجيب للحادثة ، ولم يتفتح إدراكه لها ، فلم يجد لها من التعليل إلا ما يوافق نظرته المادية إلى الأمور وإدراكه لها ، بل يعمى عن الحقيقة وهى منه قاب قوسين أو أدنى ، بل هى بين يديه ، وأعني بذلك أن محمداً صلى الله عليه وسلم ، كان في ذلك الوقت زوجاً لخديجة رضي الله عنها صاحبة الأموال والتجارات ، إن لم نقل من موسرات مكة المعدودات ، وما أظنها كانت تضن على هذا الحبيب ، الأمين صلى الله عليه وسلم بنفقات رحلة إلى الطائف، وما أيسرها . بل إن محمداً صلى الله عليه وسلم بعد ما عمل لخديجة في مالها ، ورواج تجارتها ببركته ، كان له من الأسهم في هذه التجـارة ما يغنيه لو أراد.

ومثال آخر على ذلك الإدراك المنقوص ، لتعطل الروح والحس ما كتبه طه حسين في كتابه (الشيخان) فقد كانت عبارته التي يدفع بها الأخبار، هى قوله : « وأكاد أشك » و « أنا أشك » و « أنارأرفض » و « أنا أكاد لا أصدق» ونحو ذلك ، فإذا جاء خبر عن قائدٍ من قواد عمر بن الخطاب حسدَ القائدَ الآخرَ على كثرة ما غنمت كتيبته ، فطلب من عمرَ أن يأذن له أن يهاجم هاتيك القرى ، حتى ينال حظاً من الغنائم مثلَ الذي ناله قرينه، فيأذن له عمر ، وتهتزُ نخوة القائد البطل طرباً ويهجم على القرى ويمزقها ، يباري قرينَه في الغنائم ، حين تجري هذه الرواية على قلم الدكتور عميد الأدب العربي طه حسين - تتبخرُ أدوات الشك وعباراته كلُها ، فلا تقرب واحدة من هذه العبارات هذا الخبرَ ، بل يذكره بصيغة الصحة والجزم والقطع.

فقطعنا ذلك لا يكون إلا من نقص الإدراك ، ونقص الاستجابة بالتالي ، ولو كان لديه الإدراك الكامل السليم ، لأدرك الروحَ التي كانت تحكم هؤلاء الأطهار ، ولعلم أن هذه الرواية أولى بكل أدوات الشك التي بعثرها في كتابه ، ولو أدرك أن هؤلاء هم الذين تربّوا في مدرسة محمد صلى الله عليه وسلم ووَعَوا قوله:« من قاتل لتكون كلمة الله هي العليا، فذلك في سبيل الله» . فما بال القتال في سبيل الغنائم، ولو وعى أبسط الحقائق النفسية، لأدرك أن من يقاتل في سبيل الغنائم لايدوم له نصر ، ذلك أنه يكون معلق القلب والبصر بما خلّفه وراءَ من مال ، وبما يبغيه من أيدي عدوه ، ومثل ذلك

لا يدوم له نصر ، وإن كسب معركة أو أكثر ، ثم الأدهى أن يُسند الإذنَ بالقتال إلى عمرَ رضي الله عنه ، الذي كان يتمنى أن بين المسلمين وبين الفرس جبلاً من النار لا يعلونه ولا يعلوه. والذي كان يكره الحرب والعجلة فيها ويقول :«إن الحرب لا يصلحها الرجل العجول » فتعمى البصائر وتؤكد أن عمر كان يأذن لقواده بغزو القرى من أجل المال والغنائم.

وسائل تشويه التاريخ الإسلامي

وفي إيجاز سريع نشير إلى وسائل هذا التشويه :-

١ - التركيز على الغزوات والمعارك وكأنها هى كل تاريخ الإسلام.
٢ - عدم إعطاء هذه المعارك حقها من التفسير والتعليل ، وبعث الجو الذي جرت فيه والدوافع التي أدت إليها.
٣ - ذكر تفسير ودوافع للأعمال العسكرية أقل ما توصف به أنها خبيثة.
٤ - ذكر أحداث في صورة أكبر من حجمها.
٥ - بتر الأحداث واختيار جوانب منها عند روايتها لتؤيدّ رأياً معيناً .
٦ - سوء التعبير الذي يصل إلى حد البذاءة.
٧ - التناقض بين بعض الدراسات وبعض.
٨ - استخدام الدراسات الأدبية واللغوية مجالاً لبث السموم وتشويه التاريخ .

وسنعود -إن شاء الله لتفصيل- كل واحدة من هذه بقدر الجهد والطاقة.

والله ولينا هو نعم المولى ونعم النصير.